

# التماثيل

## التماثيل في الجاهلية

صناعة التماثيل من فروع التصوير ، ولا ريب في وجودها عند العرب بدليل وجود الأصنام ، وما لهجت به شعراؤهم من تشبيه النساء بالدُمى وهي الصور من العاج وغيره . وقد كانت أصنامهم بالغة في الكثرة مبلغاً لا يستهان به ، فكان منها حول الكعبة المعظمة يوم فتح مكة ثلاثمائة وستون صنماً على ما رواه البخاري والمؤرخون<sup>(٢٠٠)</sup> ؛ عدا ما كان منتشراً في أماكن أخرى من هذا البلد وسائر أماكن الجزيرة ؛ بل بلغ من استهتارهم بعبادتها أن كل حي من أحيائهم كان فيه صنم ، وغلا كثيرون منهم ، فاتخذوا لهم أصناماً خاصة في دورهم . ذكر ابن الكلبي في « كتاب الأصنام » أنه كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً<sup>(٢٠١)</sup> .

ولا يخفى أن مثل هذه الكثرة يستبعد معها أن تكون جميعها مجلوبة إليهم مع ما في بلادهم من مشاق النقل ووعورة المسالك . على أننا غير منكرين نقلهم بضعة أصنام من الشام في بدء عبادتهم لها ، وهي التي قدم بها عمر بن لُحَيٍّ حينما أدخل هذه العبادة بينهم\* . ولكن ذلك لا يستلزم عدم اشتغالهم بصنعها بعد ذلك ، كما ستراه مؤيداً بالبرهان عند ذكر أسماء المصورين .

وكانت تلك الأصنام أنواعاً : منها ما هو خارج عن بحثنا كالعزى ؛ فإنها كانت ثلاث شجرات من سمر عبدوها<sup>(٢٠٢)</sup> ، وكالأحجار التي كانت تعبد أو يذبح عليها ،

(\*) لبعض الباحثين من مؤرخي مصر رأى في إنكار إدخال عمرو بن لُحَيٍّ هذه العبارة بين العرب ليس هذا موضع تفصيل الكلام فيه .

ويسمونها بالأنصاب (٢٠٣) . وإنما الذي يدخل في بحثنا ما كان مصوراً أي من نوع التماثيل ؛ كهبل ، فإنه كان من عميق أحمر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب (٢٠٤) . وكذلك الخاصة فإنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج (٢٠٥) . وكود فإنه كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذر\* عليه حلتان متزرجمة مرتدي بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وتنگب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيها نبل (٢٠٦) ، ذكر الثلاثة ابن السكبي في « كتاب الأصنام » . ويظهر لنا أن إسافاً ونائلة كانا من هذا النوع أخذاً من زعم العرب فيهما أنهما كانا رجلاً وامرأة ثم مسخا (٢٠٧) . وفي « الروض الأنف » للمهيلي في ذكر القليس وهو بيت للعبادة ، وكان بصنعاء ، أنه كان به صنمان من خشب ، أحدهما تمثال رجل طوله ستون ذراعاً ، والآخر تمثال امرأة ، زعموا أنها امرأته ، وكانوا ينسبون إليهما كل ما يصيبهم (٢٠٨) .

وقد اختلفوا في تعريف الأصنام فقالوا ما كان من حجارة تعبد فهي الأنصاب ، فإذا كانت تماثيل فهي الأصنام والأوثان ، وقيل الممول من خشب أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان فهو الصنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن ، وقيل لا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه ، وقيل الوثن الصنم الصغير ، أو كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب أو الحجارة ، كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد . والصنم الصورة بلا جثة وقيل غير ذلك . وقالوا في تعريف الدئمية إنها الصنم . وقيل الصورة من الرخام أو المنقشة من العاج ونحوه ، وقيل بل كل صورة من غير تقييد ، وقد لهجت العرب بتشبيه النساء بها ؛ لأنها يتنوّق في صنعها ، ويبالغ في تحسينها . وفي « شرح التبريزي على الحماسة » نقلاً عن أبي العلاء أنها قيل لها ذلك ، لأنها كانت في أول الأمر تصور بالحمرة فكأنها أخذت من الدم . وقالوا البعيم كأمير ، التمثال من الخشب أو الدمية من الصمغ .

وقالوا النَّصْمَةُ الصورة تعبد\* . وقالوا الزُّنُون بالضم الصنم وما يتخذ ويعبد والموضع تجمع الأصنام فيه ، وتنصب وتزين .

ومما ذكروه أن بعض هذه الأصنام كانت تماثيل لقوم صالحين ، أُقيمت لهم في مجالسهم ، وسميت بأسمائهم ، فلما طال العهد بأصحابها وتنوسى أمرها اتخذت آلهة تعبد من دون الله<sup>(٢٠٩)</sup> كما في وَدَّ وَسُوعَ وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْرَ التي وقعت للعرب من أصنام قوم نوح عليه السلام<sup>(٢١٠)</sup> . قال الطبري : إن سُوعاً كان ابن شيث . وإن يَعُوثَ كان ابن سُوعَ ، وكذلك يَعُوقَ ونَسْرَ ، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين ، فلم يزالوا هكذا حتى خَلَفَتِ الخُلُوفُ ، وقالوا : ما عظم هؤلاء آباءنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها<sup>(٢١١)</sup> آلهة †† .

وفي كتاب الحج من « صحيح البخارى » عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأرزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاتلهم الله أما علموا أنهما لم يستقسما بها قط فدخل البيت فكبر فى نواحيه ، ولم يصل » . وقد رواه أيضاً فى غزوة الفتح ، وقال الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » فى شرح هذا الحديث من باب الغزوة المذكورة ما نصه : « وقع فى حديث جابر عند ابن سعد وأبى داود أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة ويمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذى أخرجها ، والذى يظهر أنه محام ما كان من الصور مدهوناً مثلاً وأخرج ما كان مخروطاً » انتهى . قلنا وقد تقدم فى أول

---

(\*) ضبطت فى « القاموس » بفتح فسكون ، وقال شارحه نصّ ابن الأعرابى على أنها بالتحريك كالصنمة .

(†) استبعد بعضهم بقاء أعيانها لطول المدة ، وقالوا الذى وقع للعرب أسماؤها فقط ، فسمت بها أصناماً اتخذتها . وعلى هذا القول تكون عمريّة الصناعة . والذين قالوا ببقاء أعيانها ذكرواياتها كانت مطبورة فاتجستها العرب أى استخرجتها .

(††) ذكر العلامة الألوسى فى تفسيره « روح المعانى » فى رواية عن بعضهم أن وداً كان على صورة رجل ، وسوعاً كان على صورة امرأة ، ويعوث كان على صورة أسد ، ويعوق كان على صورة فرس ، ونسراً كان على صورة نسر ، ثم قال : « وهو مناف لما تقدم أنهم كانوا على صور أناس صالحين ، وهو الأصح » .

فصل التصوير على الجدران ذكر إتلاف عمر - رضى الله عنه - لهذه الصور ، ما كان منها مدهوناً أو مخروطاً . وأشار أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم في لاميته المشهورة إلى ما كان بالصفاء والبروة من الصور والتماثيل بقوله :

وبالبيت حق البيت من بطن مكة وباللله إن الله ليس بغافل  
وبالحجر الأسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحي والأصائل  
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل  
وأشواط بين المروتين إلى الصفا وما فيهما من صورة وتماثيل<sup>(٢١٢)</sup>  
أراد وتماثيل فحذف الياء ، وقوله بالحجر الأسود ، فيه زحاف الكف وهو حذف  
النون من مفاعيلن ، وهو بعد الواو من الأسود . كذا في « خزانة البغدادي » .

وفي « معجم البلدان » لياقوت أنهم لما بنوا قصر عُمدان باليمن جعلوا في أعلاه مجلساً  
بنوه بالرخام الملوّن ، وصيروا على كل ركن من أركانه تمثال أسد من شبه كأكظم ما يكون  
من الأسد ، فكانت الريح إذا هبت إلى ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت من خلفه ،  
وخرجت من فيه ، فيسمع له زئير كزئير السباع<sup>(٢١٣)</sup> . وقد أطلال الهمداني في « الإكليل »  
في وصف هذا القصر ، ولكن ما ذكره مكرراً عن تماثيل الأسود لا يخرج عما في « معجم  
ياقوت » ، إلا أنه أنشد فيه لبعضهم :

يسمو إلى كبد السماء مصعداً عشرين سقفاً سمكها لا يقصر  
ومن السحاب معصّب بعمامة ومن الرخام منطلق ومؤزر  
وبكل ركن رأس نسر طائر أو رأس ليث من نحاس يزأر  
وأنشد فيه أيضاً لأبي الصلت\* :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً في رأس عُمدان داراً منك محلاً  
قصر بناه أبوه القليل ذو شرح فهل يرى أحد مثل الذي نالا  
منطق بالرخام المسـتـزاد له ترى على كل ركن منه تماثلاً<sup>(٢١٤)</sup>

(\*) يمدح به ابن ذى يزن .

ولو أتتبع لليمن ما أتتبع لمصر من الحفر عن آثارها لكشف التنقيب فيما نرى عن آثار مدنية هائلة ، لا تقل عن المدنية المصرية ؛ فقد روت صحف الأخبار بمصر سنة ١٣٤٠\* أن سيلا عظيما دهم وادي مرخة بقرب مأرب فكشف عن مغاور بها جثث محنطة وتمائيل رجال ونساء بسحن يمنية وتمائيل على صور البقر مكتوب عليها بالخيرية ، وتقود من الذهب والفضة وأحجار وفصوص من العقيق حملت إلى أسواق اليمن فاشتراها الهنود .

وفي « الكامل » لابن الأثير<sup>(٢١٥)</sup> ، و « العبر » لابن خلدون<sup>(٢١٦)</sup> أن ياسر بن عمرو ملك اليمن الملقب بياسر أنعم ، لإنعامه عليهم ، لما سار غازياً نحو المغرب على ما يذكر أهل اليمن ، بلغ وادياً يقال له وادي الرمل ، فلما انتهى إليه لم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل . وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا ، فأمر بنصب صنم من نحاس على صخرة في شفير الوادي ، وكتب على صدره بالخط المسند ، هذا الصنم لياسر أنعم الحميري ، ليس وراءه مذهب فلا يتكلفن أحد ذلك فيعطب<sup>†</sup> .

ومما يدل على أنهم كانوا يقيمون بعض التماثيل على قواعد مرفوعة ، أي على نحو ما تقام عليه اليوم ، قول النابغة الذبياني في المتجرّدة امرأة النعمان :

قامت تراءى بين سِجْنِي كِدْلَةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسعد  
أو دُرَّةٌ صدقيّة غواصها بهِجٌ متى يرّها يهَلّ ويسجد  
أو دُمِيّة من مرمر مرفوعة بُنِيَت بِأَجْرٍ يشاد وقرمَد<sup>(٢١٧)</sup>

قال شارحه الوزير أبو بكر البطليوسي « يقول هذه المرأة مثل دمية بنى لها بنيان مرتفع ، وحملت فيه فهو أصون لها ، وأحفظ لجسمها » .

وحكى المسعودي في « مروج الذهب » في خبر يسنده إلى منصور الطائي أنه رأى قبر حاتم الطائي بتُنفَة<sup>††</sup> ، وإذا قدر عظيمة من بقايا قدوره التي كان يطعم فيها الناس مكفأة

(\*) صحيفة الأهرام في ١ شعبان ، ٤ رمضان سنة ١٣٤٠ هجرية .

(†) بين ابن خلدون شككته في وصول ياسر إلى هذا الوادي في كلامه على مناقط المؤرخين من مقدمته ، ولهذا صدره في موضعه من تاريخه بقوله « وزعم أهل اليمن » .

(††) الذي في نسخة « مروج الذهب » المطبوعة بباريس : بيقّة ، وفي النسخة المطبوعة بيولاك : بيبة ، والصواب : تنفة . قال ياقوت في « معجم البلدان » « تنفة ” بضم أوله . والفين معجمة ماء من مياه طي ، وكان منزل حاتم الجواد ، وبه قبره وآثاره » .

ناحيةً من القبر، وعن يمين قبره أربع جوارٍ من حجارة ، وعلى يساره أربع جوارٍ من حجارة ، كلهن صاحبة شعر منشور ، محتجرات على قبره كالنأحات عليه ، لم ير مثل بياض أجسامهن ، وجمال وجوههن . وربما مرّ المارّ فيراهن فيفتن بهن فيميل إليهن مجباً بهن ، فإذا دنا منهن وجدهن حجارة<sup>(٢١٨)</sup> . قلنا والظاهر أن تماثيل هذه الجوارى كانت بالغة الغاية في الإتقان ، فإن حاكي الخبر مزجه بخرافة ، فزعم أن الجن مثلتهن على القبر . ولا عجب من ذلك ، فقد كانت العرب إذا رأت شيئاً مستحسناً أو هالها عمله ، نسبتها إلى الجن على ما هو مفصل في أقوال السلف من علمائنا المحققين ، ورحم الله أبا العلاء حيث يقول :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدّوه من صنعة الجن

### التمائيل الثابتة\*

هذا ما كان من خبر التماثيل عند العرب في الجاهلية ، وبقي منه شيء يذكّر بعد ، فلما جاء الإسلام ، وفتحوا المدائن ، ومصرروا الأمصار ، وبنوا القصور ، وغرسوا الحدائق ، واستبحروا في المدنية فشا بينهم اتخاذ التماثيل للزينة في القصور والبرك ، وتفننوا في عملها من الحجر والجص والذهب والفضة وغيرها على ما سيأتي تفصيله .

فمن ذلك ما ذكره الخطيب في مقدمة « تاريخ مدينة السلام » في وصف قصر المنصور قال : « وكان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ، وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، وسمكه عشرون ذراعاً ، وسقته قبتة ، وعليه مجلس مثله فوقه القبة الخضراء وسمكه إلى أول عقد القبة عشرون ذراعاً ، فصار من الأرض إلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس ، وكانت القبة الخضراء ترى من أطراف بغداد . حدثني القاضي أبو القاسم التنوخي ، قال : سمعت جماعة من شيوخنا يذكرون أن القبة الخضراء كان على رأسها صنم على صورة فارس في يده رمح<sup>(٢١٩)</sup> » انتهى . ثم ذكر خرافة رواها بعضهم عن هذا التمثال خلاصتها أنه إذا استقبل جهة دل ذلك على خروج خارجي في تلك الجهة ، وقد فند ياقوت هذا الزعم في « معجم البلدان » بقوله :

(\*) المراد التي لا تتحرك أعضاؤها بالحيل المتخذة في تركيبها .

قلت أنا: « هكذا ذكر الخطيب ، وهو من المستحيل والكذب الفاحش ، وإنما يحكى بمثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بليناس الذى أوهم الأغمار صحتها تطاول الأزمان ، والتخيل أن المتقدمين ما كانوا بنى آدم ، فأما الملة الإسلامية فإنها تجل عن هذه الخرافات ، فإن من المعلوم أن الحيوان الناطق مكلف الصنائع لهذا التمثال ، لا يعلم شيئاً مما ينسب إلى هذا الجماد ولو كان نبيا مرسلا ، وأيضاً لو كان كلما توجه إلى جهة خرج منها خارجي لوجب أن لا يزال خارجي يخرج في كل وقت<sup>(٢٢٠)</sup> . ثم ذكر الخطيب أن رأس هذه القبة سقط سنة ٣٢٩ .

ومن ذكر هذه القبة وتمثالها أبو الفرج بن الجوزى فى « مناقب بغداد » ، إلا أنه قال عن رأس القبة إنه سقط سنة ٣٢٧ ، وذكر أنها كانت تاج بغداد ، وعلم البلد ، ومأثرة من مآثر بنى العباس<sup>(٢٢١)</sup> . ورأيت فى جزء قديم من تاريخ مجهول عندى فى حوادث سنة ٦٥٣ أن القبة سقطت برمتها فى تلك السنة ، وكانت مجلساً للخلفاء إلى أيام الرشيد ، ثم هجرت وصارت مأوى للبوم والغربان ، فقال فيها أحد الفقراء ، وكان مقياً فى مسجد المنصور يصف ما آلت إليه حالها :

يا بومة القبة الخضراء قد أنست روجى بروحك إذ يستبشع البوم  
زهدت فى زخرف الدنيا فأسكنك ١١ ربع الخراب فمن يذمك مذموم  
ومثله ما ذكره ابن الأثير فى « طبقات الأدباء » قال : « قال ابن عائشة : كنا نجلس مع سيبويه الذهوى فى المسجد ، وكان شاباً نظيفاً جميلاً تعلق من كل علم بسبب ، وضرب من كل أدب بسهم ، مع حداثة سنه ، وبراعته فى النحو ؛ فبينما نحن ذات يوم ، إذ هبت ريح فأطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر أية ريح هى ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فارس ، فنظر ثم عاد ، فقال : ما ثبتت على حال<sup>(٢٢٢)</sup> . ويفهم من ذلك أن هذا التمثال كان يدور على محور ، فإذا أتجه إلى جهة علم أن هبوب الريح من الجهة التى تقابلها .

ومنه تمثال فرس بفارسه وجميع آلاته من عقيق ؛ ذكره الخالديان فى كتاب « الهدايا والتحف » فى هدية الخليفة المأمون لملك الهند ، وقد تقدم ذكر شيء من هذه الهدية فى فصل التصوير على الأقداح والأواني .

وكان المتوكل العباسي شديداً على أهل الذمة ، ذكر ابن الأثير في حوادث سنة خمس وثلاثين ومائتين ، أنه ألزمهم بأمور في ملابسهم وصراحتهم ؛ كلبس الطيالة العسلية وشدّ الزنابير وركوب السروج بالركب الخشب ، وغير ذلك ، وأغربها إلزامهم بأن يجعلوا على أبواب دورهم صور شياطين من خشب . وفي « تاريخ الطبري » أن هذه الصور كانت من خشب مسمرة<sup>(٢٢٣)</sup> ، وقد ذكر ذلك أيضاً عليّ دده في « محاضرة الأوائل »<sup>(٢٢٤)</sup> ، وذكره القلقشندي في « صبح الأعشى » غير أنه لم يذكر صور الشياطين . ورأيت في جزء من تاريخ مجهول لسلطين مصر ، لم يعرف اسمه ولا اسم مؤلفه\* ، شيئاً من هذا الخبر ذكر عرضاً في الكلام على إلزام الناصر محمد بن قلاوون أهل الذمة بلبس العائم الملوّنة ؛ ونص العبارة : « وروى أن المتوكل أقصى اليهود والنصارى ، ولم يستعملهم وأذلّهم وخالف بين زيّهم وزى المسلمين ، وجعل على أبوابهم الدهان مثال الشياطين » وهي عبارة صريحة بأن هذه الصور كانت مصورة بالدهان ، أى ليست تماثيل من خشب كما في عبارة ابن الأثير والطبري ، ولا يبعد أن يكون بعضها صور بالدهان وبعضها كان تماثيل . ثم رأيت في جزء من تاريخ عندي قديم الخط مجهول شيئاً عن هذه الصور مدة المقتدى ، ونص عبارته : « وآخر من شدد عليهم المقتدى بأمر الله ، وأجرام على العادة التي كانت في زمن المتوكل ، فعلق في أعناقهم الجلاجل ، ونصب الصور الخشب على أبوابهم » .

وذكر النويري في « نهاية الأرب » ما بناه المتوكل هذا من القصور ، فقال عن المسمى بالبرج : « قالوا وكان البرج من أحسنها ، كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة غُشيَ ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة ، وجعل عليها شجرة من ذهب فيها طيور تصوت وتصفر سماها طوبى ، بلغت النفقة على هذا القصر ألف دينار وسبعماية ألف دينار<sup>(٢٢٥)</sup> » انتهى .

وقال البحترى من قصيدة يصف بها بركة أنشأها المتوكل وكان بها تماثيل دلفين .

لا يبلغ السمك المحصور غايتها      لبعد ما بين قاصيها ودانيها  
يعمن فيها بأوساط مجنحة      كالطير تنقض في جوّ خوافيها

لهنّ صحن رحيب في أسافلها إذا انحططن وبهّو في أعاليها  
صُور إلى صورة الدلفين يؤنسها منه ازواء بعينيه يوازيها<sup>(٢٢٦)</sup>  
أى مائلة مقبلة إلى صورة الدلفين .

ومن ذلك ما ذكره ياقوت في حرف الدال من « معجم البلدان » قال : « دار الشجرة دار بالدار المعظمة الخليفة ببغداد من أبنية المقتدر بالله ، وكانت داراً فسيحة ذات بساتين مؤنقة ، وإنما سميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدوّرة أمام إيوانها ، وبين شجر بستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها فروع كثيرة مكالة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة إذا مرّ الهواء عليها أبانت عن عجائب من أنواع الصفيير والهدير ، وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديح مقلّدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد يتحركون على خط واحد ، فيظنّ أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد » . قلنا دار الشجرة هذه هي إحدى الدور التي دخلها رُسل ملك الروم في ملاقاتهم للمقتدر . وقد أطل الخطيب البغدادي في مقدمة « تاريخ مدينة السلام » في وصف هذه الملاقاة ، وما هياه المقتدر لإظهار أبهة الخلافة بما يقضى بالعجب العجاب ، ويخرج عن موضوع هذا الكتاب . وقد جاء في أثناء كلامه ما نصّه : « ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها ، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، عليها أطيار مصوغة من الفضة ، تصفر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهد » .

وأعاد وصفها بعد ذلك فقال : « ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة ، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدوّرة فيها ماء صافٍ ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات\* كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب . وهي تتمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكلّ من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وفي جانب الدار يمنة

(\*) الشاخات لفظ فارسي معناه الفروع والأغصان والواحد عندهم شاخ .

البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي أيديهم مطارد على رماح ، يدورون على خط واحد فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد ، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك<sup>(٢٢٧)</sup> .

وفي ترجمة عبد الله بن عبد السلام الشهير بابن أبي الرداء المتولى مقياس النيل بمصر أن الخليفة المتوكل على الله أمر أحمد بن محمد الجاسب بهارة المقياس بالجزيرة (أى جزيرة الروضة بمصر) فحسكى ما عمله فى ذلك ، وما كتبه من الآيات الكريمة واسم الخليفة على مواضع من المقياس فى عبارة طويلة ، ساقها ابن خلكان فى هذه الترجمة ، وكان مما عمله ، تمثال سبع أقامه على أحد الحيطان ، ووصفه بقوله : « وأخذت مثال سبع من رخام ركبته فى وجه حائط فوق القناة المطلة على النيل ، على المقدار الذى إذا بلغ الماء ست عشرة ذراعا دخل الماء فى فيه<sup>(٢٢٨)</sup> » .

وذكر المقرئى فى « خططه » أن باب الصلاة الذى كان يخرج منه أحمد بن طولون من قصره إلى مسجده كان يسمى أيضا بباب السباع ؛ لوجود أسدين من جص عليه<sup>(٢٢٩)</sup> . وذكر أيضا فى كلامه على خزانة الجواهر والطرائف والطيب الفاطمية الأجاجين القائمة على أرجل على صور الوحوش والسباع . والتماثيل المصنوعة من العنبر ، وكانت كثيرة تبلغ اثنين وعشرين ألف قطعة أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر مئنا . وتمثال الطاووس الذهب المرصع بنفيس الجواهر ، وعيناه من الياقوت الأحمر ، وريشه من الزجاج الميناء المجرى بالذهب على ألوان ريش الطواويس . والديك الذهب ذا العرف الكبير المفروق المتخذ من الياقوت كأ كبر ما يكون من أعراف الديكة . والغزال المرصع بنفيس الجواهر ذا البطن الأبيض المنظوم بالدر الرائع . وتمثال البستان المصوغ من الفضة المذهبة طينة من الند ، وثمر شجره من العنبر وغيره<sup>(٢٣٠)</sup> .

وذكر المقرئى فى « خططه » أيضا فى وصف ما كان يعمل بالقاهرة يوم فتح الخليج زمن الفاطميين أنهم كانوا يهتمون اهتماما عظيما إذا دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء ، فكان يعمل فى بيت المال من التماثيل شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عددا وافرا ؛ منها ما هو ملبس بالصندل ، ثم شكل التفاح والأترج اللطيف والوحوش مفسرة الأعين

والأعضاء بالذهب . ثم ذكر أن هذه التماثيل كانت تجعل في صوان ، وتحمل لأسماء الدولة وأعيانها بعد فتح الخليج عند وصول المائدة من القصر إلى منظره السكرية\* التي يجلس فيها الخليفة وقت الفتح ، فكان يحمل للوزير ما هو مستقر له عادة ، ومن صواني التماثيل المذكورة ثلاث صوانٍ ، ويخصص منها أيضاً لأولاده وإخوته خارجاً عن ذلك إكراماً وافتقاراً ، ويحمل إلى قاضي القضاة والشهود شدة الطعام الخاص من غير تماثيل توفيراً للشرع ، ويحمل إلى كل أمير في خيمته شدة طعام وصينية تماثيل ، ويصل من ذلك إلى الناس شيء كثير<sup>(٢٣١)</sup> . ونقل عن ابن المأمون وصف احتفال لفتح الخليج وقع مدة الأمر بأحكام الله سنة ٥١٧ يقول فيه عن هذه التماثيل : « وهئيات المقصورة في منظره السكرية برسم راحة الخليفة وتغيير ثيابه وقد وقعت المبالغة في تعليقها وفرشها وتعبيتها ، وقدّم بين يديه الصواني الذهب التي وقع التناهي فيها من هم الجهات<sup>†</sup> ؛ من أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها المعمولة من الذهب والفضة والعنبر ، والمرسين المشدود والمضفور عليها المكال باللؤلؤ والياقوت والزبرجد من الصور الوحشية ما يشبه الفيلة ، جميعها عنبر معجون كحلقة الفيل ، وناباه فضة ، وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعليه سرير منجور من عود ، بتمكثات فضة وذهب ، وعليه عدة من رجال ركبان وعليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجرّدة والدرق وجميع ذلك فضة ، ثم صور السباع منجورة من عود ، وعيناه ياقوتتان حراوان ، وهو على فريسته ، وبقية الوحوش وأصناف تشدّ من المرسين المكال باللؤلؤ شبه الفأكة»<sup>(٢٣٢)</sup> .

(\*) في « خطط المقرئ » أن منظره السكرية كانت لجلوس الخليفة يوم فتح الخليج وكانت في برّ الخليج الغربيّ وكان لها بستان عظيم بناها العزيز بالله ابن المعز لدين الله الفاطمي . قال : وقد دثرت ، ويشبه أن يكون موضعها في المكان الذي يقال له اليوم المريس قريباً من قنطرة السد . وفي « خطط علي مبارك باشا » أن محلها الآن المنزل المملوك للأمير أحمد كمال ابن عم الحديو . قلنا وقد هدم المنزل المذكور وبنت موضعه مدرسة دار العلوم الواقعة من الشمال على شارع المتديان بالقرب من محطة السيدة زينب إحدى محطات سكة حديد حلوان .

(†) أي نساء الخليفة وهي كلمة تعظيم جرّوا على التعبير بها عن نساء الخلفاء والملوك خاصة ، وقد يعبرون بها عن نساء العظماء ؛ فإذا قيل جهة الخليفة أو جهة السلطان فالمراد زوجته ، ويعلم من العبارة أن نساء الخلفاء الفاطميين كنّ يرتبن هذه التماثيل في الصواني اهتماماً بشأن هذا الاحتفال .

وعثروا سنة ١٣٤٥ في أطلال القسطنطين على تمثال مغنية مصنوع من الشبه ترى فيه جالسة متربعة ، وفي يدها دُفّ تنقر عليه ، وعلى رأسها صورة إكليل مرصع ، وفي جيدها عقد ، وفي يدها سواران ، ولها ثلاث جدائل ؛ واحدة مدلاة على ظهرها واثنان على نهديها . وقد حفظ بدار الآثار العربية بالقاهرة<sup>(٢٢٣)</sup> ، ويظن أنه من العصر الفاطمي .

وفي « المختار السائغ من ديوان ابن الصائغ الطيب » أن أبا الحسن بن بشر بن عبدون الكاتب أخبره أنه رأى عند الأمير غازي بن أرتق\* تمثال رمانة أهدى إليه ، وهي من ذهب أحمر وميناء خضراء مرصعة باللؤلؤ ، وفي باطنها حب بلخش ، ولها أربعة أبواب تفتح عن بيوت مملوءة طيبا ، والبيوت وأنواعها خفية عن يراها ، وسأله وصفها فقال :

وخود تحي الشرب بعد كؤوسهم	برمانة من عسجد وزبرد
مرصعة باللؤلؤ الرطب ظاهراً	وباطنها حب البلخش المنضد
وتخفي بيوتاً أرباعاً لا تنالها	لطافة حس العالم المتوقد
إذا فتحت أبوابها ظهرت بها	ودائع طيب في مخازن عسجد
وكانت كأفلاك السماء نجومها	ترى في بروج لا تبين لمهدت <sup>(٢٢٤)</sup>

ومما يصح إلحاقه بهذه الرمانة ما روى عن المتنبي أنه دخل على أبي العشائر الحسين ابن علي بن حمدان ، ورأى في يده بطيخة من ندى في غشاء من خيزران ، وعليها قلادة من لؤلؤ ، فحياه بها ، وطلب منه تشبيهها فقال :

وبنية من خيزران ضمنت	بطيخة نبتت بنار في يد
نظم الأمير لها قلادة لؤلؤ	كفعاله وكلامه في المشهد
كالكأس باشرها المزاج فأبرزت	زبداً يدور على شراب أسود <sup>(٢٢٥)</sup>

(\*) اسمه إبل غازي ولقبه نجم الدين ، وهو الذي ملك ماردین سنة إحدى وخمسة . ذكره ابن خلكان في ترجمة أبيه أرتق ، وترجمه سبط ابن الجوزي في « مرآة الزمان » وقال : توفي سنة ٥١٦ أو ٥١٥ بظاهر ميافارقين ، ثم حمل إليها ودفن بها . وفي « الكامل » لابن الأثير أنه توفي سنة ٥١٦ .

(+) الوجه « أربعة » ولكن حكى الصبان عن « شرح الكافية » للصفي أن الممدود إذا قدم وجعل اسم العدد صفة جاز لإجراء القاعدة وتركها ، نقول مسائل تسم ورجال تسعة وبالعكس ، ثم قال : فاحفظها فانها عزيزة .

وقال فيها ارتجالاً أيضاً :

وسوداء منظوم عليها لآلى لها صورة البطيخ وهي من الند  
كان بقايا عنبر فوق رأسها طلوع رواعي الشيب في الشعر الجعد<sup>(٢٣٦)</sup>

وفي « لطائف المعارف » للتحالبي أن المتوكل لما أعذر\* ابنه المعتز ، احتفل في الدعوة وجلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ، ومدت بين يديه الموائد مرصعة بالجواهر ، وعليها أمثلة من العنبر والندّ والمسك المعجون على جميع الصور<sup>(٢٣٧)</sup> . وفي « مطالع البدر » وصف مفصل لهذا الإعذار جاء به أن هذه التماثيل عملت من العنبر والمسك والكافور على مثل الصور ، فمنها ما كان مرصعاً بالجواهر مفرداً ، ومنها ما كان عليه ذهب وجوهر<sup>(٢٣٨)</sup> . وكذلك فعل صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي ، لما ولد له ولده الملك العزيز من ضيفة خاتون بنت عمه العادل سنة ٦١٠ . قال ابن الفرات في « تاريخ الدول والملوك » : إنه احتفل لذلك احتفالاً كبيراً ، وأمر بإحضار شيء كثير من الفضة والذهب ، وأمر الصواغ ألا يتركوا شكلاً ولا صورة من سائر الصور إلا ويصورون مثلها ، فصاغوا من ذلك ما وزن بالمقاييس سوى ما عمل من الأبنوس والصندل والعود وغير ذلك<sup>(٢٣٩)</sup> .

ومثله ما ذكره محمد بن داود المقدسي<sup>†</sup> في حوادث سنة ٩٩٠ عما عمل في ختان ابن درويش باشا والي دمشق في عصره ، وهو شيء يسمى النقل عملوه بجامع المصلى ، وجامع إيلخان خارج محلة القراونة ، وجامع التوبة ، ومحمل يوم الأحد رابع عشر شوال ، وخرج للفرجة عليه جميع أهل دمشق رجالاً ونساء ، لم يتخلف أحد ، وهو يشتمل على أربع عشرة قلعة من الورق المحشو بالبارود ، وأربع عشرة فرسا ، وأربعة عشر عفريناً كذلك . وعلى صور طيور ووحوش وكلاب وغير ذلك . وعلى قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل

(\*) أعذر العلام : ختنه . وأعذر للقوم : عمل طعام الختان .

(†) كتب إلى بهذه العبارة صديقي الأستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق . وقال إنه نقلها من كتاب حوادث من سنة ٩٨٥ إلى سنة ١٠٠٦ اطلع عليه بخط المقدسي المذكور على ما يذكر .

على صورة أنواع الفواكه والبقول والأزهار والأطيبار وغيرها . كل ذلك من الشموع المصبغة والتذهيب والتفضيض . وكان ارتفاعه على علو الجملون الذي بجامع المصلى ، بحيث لم يتأت نقله منه وإخراجه إلا بعد فك الجملون المذكور وهدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور ، وهدم مواضع متعددة في طريقه إلى دار السعادة ، وهدم الحائط الشرقى من باب دار السعادة أيضاً حتى أدخل ، وكان لهذا النقل يوم مشهود ، ثم في اليوم الثانى منه نقل النقل الذى صنع بجامع محلة القراونة وبجامع التوبة ، وهو يشتمل على قصرين عظيمين من الشمع أيضاً : أحدها أطول من القصر المقدم بنحو أربع أذرع والآخر دونه مشتملين على ما تقدم ، وعلى صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل والجمال والبقيلة والسباع والطيور وغيرها ، كل ذلك من السكر المعقود ، وعلى النقول الملبسات بالسكر أيضاً ، ثم أقاموا نحو سبع ليال يحرقون الحرائق بالبارود بدار السعادة ، وكل ذلك من الإسراف المحرم . انتهى بنصه .

وفى « نشوار المحاضرة » للتنوخى : « وشرب أبو القاسم بن أبى عبد الله البريدى بالبصرة ، على ورد بعشرين ألف درهم فى يوم واحد على رخصته هناك ، واسترخا من السلطان لما يشتهيه ، وطرح فيه عشرين ألف درهم خفافاً وزنها عشرة آلاف درهم ، وشيئاً كثيراً من قطع الندد المتاقيل اللطاف وقطع الكافور اللطاف والتماثيل ولعب به شاذ كلى\* ، واتهب الفراشون الورد مع ما فيه من الدراهم والطيب » (٢٤٠) .

وفى « أخبار مصر » لابن ميسر فى ذكر ما وجد من الذخائر فى خزان الأفضل ابن أمير الجيوش وزير الأمر الفاطمى بعد مقتله أنه كان بينها « لعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة » (٢٤١) . قلنا وهو من غريب ما يروى من ضروب التعم والترفة . وذكر ابن خلدون فى « تاريخه » من الذخائر التى وجدت للأفضل

---

(+) وهو لفظ فارسى مركب من (شاد) بالذال المهملة ، وينطق به ذالا معجبة لوقوعها بعد حرف من أحرف العلة على القاعدة عند بعضهم ومعناه الفرح والسرور ، ومن (كل) بضم الكاف الأجمية التى كالجيم المصرية ومعناه الورد ، والمراد هنا السرور بالورد ، والظاهر أنه نوع من اللهب واللعب كان يعمل سروراً بالورد ، ولم نقف على تفصيل فى وصفه .

« دكة عاج وآبنوس محلاة بالفضة عليها عَرَمٌ \* مثنى من عنبر زنته ألف رطل ، وعلى العرم مثل طائر من الذهب برجلين مرجاناً ومنقار زمرداً ، وعيناه ياقوتتان كان ينصبها في بيته ويضوع عَرَفَها فيم القصر ، وصارت إلى صلاح الدين »<sup>(٢٤٢)</sup> . والذي في « تاريخ الدول والملوك » لابن الفرات ، عند ذكره ذخائر الأفضل أن هذه الدكة وما عليها من عمل الخليفة الأمر ، ونص عبارته : « ووجد من العود والعنبر والمسك ما أذهل الناس ؛ فأما العنبر فإنه كثر بعين الخليفة ، فأمر بعمل دكة آبنوس وعاج وحلاها بالفضة ، ولبس عليها العنبر شكل هرم مثنى وزنه ألف رطل بالمصرى ، وعمل على الهرم ببغاء من الذهب ورجليها من المرجان ، ومنقارها من الزمرد ، وعينيها ياقوتتين حمر ، ونصبها على الهرم المذكور على الدكة بالمجلس بقاعة الذهب ، فكانت الريح تخرج ريحها إلى القاعة ولا سيما أيام الصيف ، ولما أحيط على القصر في أيام صلاح الدين يوسف وكسرت العنبرة المذكورة للبيع ووزنت على من تسلمها ، فكان وزنها ألف رطل بالمصرى لم تنقص غير ثلاثين رطلاً . انتهى بحروفه .

وفي « نخبة الدهر » لشيخ الزبوة أن الملك المنصور قلاوون لما كان بدمشق سنة اثنتين وثمانين وستمائة أحضر إليه من المدرسة الجوهريّة مائة ذهب وزنها ثمانية أرطال وربع بالدمشق ، وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان<sup>†</sup> من ذهب في منقار كل واحدة لؤلؤة بقدر الحصة ، وفي منقار الدجاجة درة بقدر البندقة . وفي وسط المائة سكرجة من زمرد سعتها مثل كفة الميزان التي للدراهم السوقى ، لا الكبير ؛ مملوءة حبات من الدر ، قيل إن الملك الناصر صاحب حلب أودعها لنجم الدين الجوهري فأكنزها بدهليز مدرسته فوشى بها إلى الملك المنصور جارية من جوارى الجوهري ، وكان على جميع المائة شبكة من ذهب منسوج صغيرة العين حاوية لكل ما في المائة<sup>(٢٤٣)</sup> .

وذكر العليمي في « المنهج الأحمد »<sup>(٢٤٤)</sup> عن أحمد بن علي العثني أحد الزهاد أنه كان

---

(\*) أى كومة من عنبر ، وأصل العَرَمُ بفتح العين الكدس من الحبّ الدوس يجعل كهيئة الأزج ليذرى .  
(†) كذا بالأصل .

عفيقاً لا يسأل أحداً شيئاً ، ويتقوّت من عمل يده بتجسيص الحيطان ويتنزه في صناعته عن عمل النقوش والصور . ثم ترك صناعته بسبب دخوله مرة دار السلطان للعمل مع الصناع ، وكان فيها صور من الإسفيداج ، فلما خلا كسرهما كلها ، فاستعظموا ذلك منه ، وانتهى خبره إلى السلطان وأعلموه بصلاحه ، فأمر بإخراجه ، ولم يعاقبه .

وذكر سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٩٣ من « مرآة الزمان »<sup>(٢٤٤)</sup> ، وأبو شامة في « الذيل على الروضتين »<sup>(٢٤٦)</sup> قدوم الأمير حسام الدين أبي الهيجاء السمين إلى بغداد واحتفال الخليفة بلقائه ، فحكى عنه أنه كان ذا رأس صغير ووطن كبير جدا يبلغ رقبة بغلته وهورا كلها ، وأنه لما اجتاز بمحلة الحربية رآه رجل كواز فضحك من هيئته وعمل في ساعته كوزاً من طين على صورته ، وعمل أهل بغداد بعده كيزاناً على هذه الصورة ، وسموها أبا الهيجاء السمين ، وكانت وفاة هذا الأمير سنة ٥٩٤\* .

ومن هذا النوع تماثيل الشارات المسماة بالزنوك في الدولتين التركية والجر كسية بمصر ، وقد كانت كثيرة نذكر منها تمثال أسد من حجر بدار الآثار العربية<sup>(٢٤٧)</sup> ، عثروا عليه في قناطر خليج أبي المنجى<sup>(٢٤٨)</sup> ، وهي من آثار الظاهر بيبرس ، وقد قدمنا أن شارته كانت على صورة أسد . ولما بنى قنطرته على الخليج القاهري أقام عليها أيضاً أربعة أسود من الحجارة على كل جانب اثنان ، فسميت لذلك بقناطر السباع ، وكانت عالية مرتفعة ، فلما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطاني في موضع بستان الخشاب<sup>††</sup> حيث موردة

---

(\*) ذكر ابن الأثير في « الكامل » قدومه إلى بغداد ، وقال إنه كان أميراً كبيراً من أمراء مصر ، فارق بي أيوب وقدم بغداد لخدمة الخليفة وذكر أنه كان كثير السن ، ولكنه لم يتعرض لعمل الكيزان على صورته .

(†) أبو المنجى رجل من اليهود ، كان مشاركاً لأعمال الخليل بن مصر مدة الفاطميين ، وهو جدّ بي صغير الأطباء اليهود . شرع في حفر هذا الخليج سنة ٥٠٦ وأقام في عمله سنتين . والقناطر التي عليه من بناء الظاهر بيبرس ، ثم جدها قايتباي لما تداعت ولم تزل باقية إلى الآن بعناية لجنة الآثار العربية ، وهي شمال القاهرة يراها المسافر منها في القطار عن يساره بين شبرا وقلوب .

(††) موضعه الأرض الواقعة تجاه القصر العالي وقصر العيني المتخذ الآن مستشفى ومدرسة للطب ، وكان القصر العالي من قصور والي مصر إبراهيم باشا المظلة على النيل ، ثم صار لولده الخديو إسماعيل باشا وبيع بعد موته فهدم وقسمت أرضه وبيعت قطعاً بنيت عليها القصور الفخمة ، ولم تزل هذه الجهة تعرف بجهة القصر العالي .

البلاط ، وتردد إليه كثيراً صار يمر عليها في نزوله من قلعة الجبل ، فتضرر من علوها ، وشكا إلى الأمراء تألم ظهره ، وإنما أشاع ذلك ليزيلها ؛ لأنه كان يكره النظر إلى آثار من قبله ، ويحب ألا ينسب شيء إلا إليه ، وكان كلما مر بها رأى الأسود - وهي شارة الظاهر بيبرس - فأحب إزالتها بدعوى تجديد القنطرة فهدمها ، وأعادها أوسع مما كانت بعشر أذرع وأقصر من ارتفاعها الأول ، ولكن لم يتم له مقصوده ؛ لأن العامة علمت بما يرمى إليه ، وتحدثت به فاضطر إلى إعادة الأسود عليها كما كانت . ثم حدث أن رجلا من الصوفية كان يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر\* ، سوت له نفسه القيام بتغيير أشياء رأى أنها من المنكرات ، فشوه صور هذه الأسود سنة ٧٨٠ كما فعل بوجه صنم الأهرام المعروف عند العامة بأبي الهول . حكى ذلك المقرئى وتمثل فيه بقول القائل :

وإنما غاية كل من وَصَلَ صيد بنى الدنيا بأنواع الحيل<sup>(٢٤٩)</sup>

وفي ترجمة الشيخ ولى الدين أحمد بن محمد بن أحمد المحلى الشافعى من « الضوء اللامع » أنه كان ينكر الشخوص التى بهذه القناطر ، وبلغ الظاهر جقمق عنه أنه يروم هدم هذه القناطر والربوع التى تسكنها النساء الخواطي\* ، ومنع الناس من استتباع رقيقهم وتكليفهم ما لا يطيقونه من الجرى خلف دوابهم ، فحبسه وقتاً لذلك ، وكانت وفاته سنة ٨٨٢<sup>(٢٥٠)</sup> .

وقد شاهد الشيخ العلامة عبد الغنى النابلسى سبعين من هذه السباع ، وذكرها في رحلته « الحقيقة والمجاز » ، فقال في وصف مارآه بالقاهرة : « فررنا على المكان المسمى بقناطر السباع ، فوجدنا هناك صورة سبعين اثنين من الحجارة على قناطر لها بالخليج استدارة » . قلنا والقناطر المذكورة هى التى كانت تسمى في عصرنا هذا بقنطرة السيدة

---

(\*) ترجمه تقي الدين ابن قاضى شهبه في تاريخه فيمن توفى سنة ٧٨٦ فقال : « محمد بن صديق ابن محمد التبريزى المصرى » ويعرف بصائم الدهر أحد الصوفية بخانقاه سعيد السعداء ، قال بعض المؤرخين : كان يصوم الدهر ويفطر دائماً على حمص مصلوق بغير أدام ، أقام على هذه الطريقة نيفا وأربعين سنة ، ولبسه الملحم الأزرق وعلى رأسه منزر أسود ، ولا يلبس البياض إلا للصلاة الجمعة . وكانت أوقاته مقسومة ؛ وقتاً للصلاة ، ووقتاً للقراءة ، ووقتاً للدلالة ، وكان مثابراً على إنكار المنكر جهده وطاقته ، وهو الذى طمس وجوه السباع التى على قناطر السباع وشوه وجوهها فأزال عنها العيون وغيرها . توفى في رمضان ودُفن بمقابر الصوفية . انتهى .

زينب ، لوقوعها أمام المسجد الزينبي ؛ ولما جدد والى مصر عباس الكبير هذا المسجد  
جددها ، ثم خربت لما ردم الخليج سنة ١٣١٤ (٢٥١) .

ومن هذه التماثيل طائر المظلة التي كانت ترفع على سلاطين مصر في المواكب وتسمى  
بالقبة والطير (٢٥٢) ، وإليها يشير أحد شعراء ذلك العصر بقوله في وصف الأشجار والأطيار :

لَمْ لَا أَقْضِي الْعَمْرَ فِي دَوْحَةٍ يَفْتَنُنِي مَنظَرُهَا النَّاصِرِ  
وَحَيْثَمَا سَرَتْ بِأَرْجَائِهَا تَظَلَّنِي الْقَبَّةُ وَالطَّائِرُ

وذكرها قطب الدين الحنفي في «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» ، في كلامه على رسوم  
الدولة الجركسية ، فقال « ويحمل على رأس السلطان قبة لطيفة كالجتر\* ، وفي وسط ذلك  
صورة طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة (٢٥٣) » . ووصفها المقرئ في «خطاه» بقوله :  
« ويقال لها الجتر ، وهو أطلس أصفر مزركش ، من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة ،  
يحملها يومئذ بعض أسراء المثين الأكبر ، وهو راكب فرسه إلى جانب السلطان (٢٥٤) » .

وفي «ذخيرة الأعلام» لأحمد بن سعد الدين العثماني العمري (٢٥٥) أن سلطان مصر  
كان إذا ركب نشرت عليه الأعلام ، وتسمى بالعصائب ، وتتخذ من الديباج الأصفر  
مزركشة وتكتب عليها ألقابه بالذهب ، وترفع فوق رأسه قبة من خيزران دقيق مكسوة  
بالحرير الأصفر المرقوم بالذهب الأحمر ، وفوقها طائر من فضة مطلي بالذهب على شكل  
الهدد ، ويحملها على قضيب أمير الأسراء ، ويكون بجانب السلطان لا ورائه ، ويزعمون  
أنهم اتخذوا هذا الشعار عن نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام ، لما كان يسير به  
البساط ، وتعقد الطير عليه قبة وفوقها الهدد ، ويمشي بجانب السلطان سائسه ، يحمل  
الفاشية وأمامه الجنود والطير دارية ، وطيورهم بأيديهم ، ويمشي أمامه النفير ووراءه  
الطبلخانات ، ويركب السلطان هذا الموكب كل يوم سبت وأربعاء وجمعة . وكان كنفور  
الإخشيدى لما كان وزيراً يركب على بغلة ببرذعة عليها سجادة ، فلما تولى إمارة مصر  
لم يغير مراكبه . انتهى .

(\*) الجتر بفتح الجيم الأعجمية وسكون المثناة الفوقية كلمة فارسية معناها المظلة .

وذكر ابن بطوطة أنه رأى مثل هذا التمثال على مظلة سلطان مقدشو آخر بلاد زيلع ، فقال في وصف رجوعه من صلاة الجمعة : « وتوجه إلى منزله ماشياً وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ، ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون ، وعلى أعلى كل قبة طائر من ذهب »<sup>(٢٥٦)</sup> . ومنه يعلم أنه لم يكن خاصاً بمظلات سلاطين مصر .  
ومنها حملات الأزيار التي كانوا يتخذونها على صورة سلحفاة برأس أو برأسين ، ويزخرفونها بالكتابات الكوفية وصور من الحيوان خيالية<sup>(٢٥٧)</sup> .

ومنها تماثيل البرك ، وكانوا يقيمونها فيها ويسلطون الماء عليها فيصب منها إلى البركة ، وفي أحد هذه التماثيل يقول عمر بن مسعود الحلبي المعروف بالمحار ، وكان التمثال من نحاس على صورة شخص يخرج الماء من أعضائه :

وشخص على ساقه قائم	مشير بساعده الأيمن
له صورة حسنت منظرا	على بدن صيغ من معدن
يكاد يحدث جلّاسه	ولكن به خرّس الألكن
إذا بث من صدره سره	فتسبّقه أدمع الأعين
ولم يبيك حزناً على نازح	ولم يصبُ شوقاً إلى موطن
صبور على الحر والبرد لم	يُسرَّ بحال ولم يحزن <sup>(٢٥٨)</sup>

وذكر الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي في حوادث سنة ٨٦٥ من تاريخه « الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم »<sup>(٢٥٩)</sup> تمثال باز ، كان مقاماً على حوض بقلعة القاهرة ، وذلك في كلامه على حضور والده\* من دمشق ، ومقابله لاسلطان الظاهر خشقدم عقب توليه الملك هذه السنة ، فقال : « وفيه أعنى هذا اليوم الذي هو يوم الثلاثاء حادي عشرى<sup>†</sup> شهر رمضان المذكور ، ركب الوالد ، وطلع إلى القلعة إلى الظاهر خشقدم يهنئه بإيتاء الله تعالى الملك له ، فأنس به وترحب ، وقال له : قد كان كعبك مباركاً علينا ، وحصلت لنا

---

(\*) اسم والده خليل بن شاهين الظاهري ، وكان من الأمراء الفضلاء ، تولى عدة ولايات منها نيابة الاسكندرية ونيابة ملطية ، وله عدة مؤلفات منها « زبدة كشف المالك » الطبوع بباريس وتوفى سنة ٨٧٣ . وتوفى ولده عبد الباسط المذكور سنة ٩٢٠ على ما في « تاريخ ابن إياس » ( ج ٣ ص ٦٣ ) .  
(†) في الأصل (عشرين) بآتياء النون مع الإضافة .

السلطنة بقدمك علينا ، فإن الوالد كان قد اجتمع به قبل ذلك غير مرة وهو على الأناكية . ثم أخذ في مكالمته وممازجته معه ، واتفق أن كان بالدهيشة ، وكان على فسقية الدهيشة هيئة باز مصور من نحاس مموه بالذهب صورة عجبية في غاية الحسن في فنه ومنظره ، فسأل السلطان الوالد عن جواز تبقية هذه الصورة بهذا المكان ، وفي جواز تصوير ذلك . وكان بالجلس أيضاً بعض ممن يدعون العلم بنفسه ، وينتسب إليه ، فبدر بأن قال : هذا عرف وعادة جرت بذلك بأمر الملوك الأقدمين ، فأجاب الوالد بأن هذا مما يحرم إبقاؤه على ما هو عليه ، ولا سيما في مجلس الإمام الأعظم ، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة ، على ما ورد في « صحيح البخاري » ، فأعجب السلطان ذلك ، ثم أمر به فذبح في الحال . انتهى بنصه .

ويلتحق بهذه التماثيل ما كانوا يصورون به جآحي السفن من أشكال الحيوان وجوارح الطير وغيرها ، كما فعل الأمين بن الرشيد بتصوير حراقاته\* الخمس بصورة الأسد والدننين والعقاب والحية والفرس وإنفاقه عليه مالا عظيماً ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا      لم تسخر لصاحب المحراب<sup>†</sup>  
فإذا ما ركابه سرن برّاً      سار في الماء راكباً ليث غاب  
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو      أهرت الشدق كالح الأنياب  
لا يعانیه بالاجام ولا السو      ط ولا غمز رجله في الركاب  
عجب الناس إذ رأوك على صو      رة ليث يمرّ مرّ السحاب  
سبّجوا إذ رأوك سرت عليه      كيف لو أبصروك فوق العقاب  
ذات زورٍ ومنسّرٍ وجناحيه      من تشقّ العُباب بعد العُباب  
تسبق الطير في السماء إذا ما اسـتمـعـلـوها      بجيئةٍ وذهاب<sup>(٢٦٠)</sup>

(\*) الحرافة بفتح الأول وتشديد الراء كانت تطلق على نوع من السفن بالبصرة ، فيها مرامي نيران يرمى بها العدو ، وعلى السفينة الخفيفة المرّ على ما في كتب اللغة . ويؤخذ من عبارات المؤرخين وأقوال الشعراء أنها أطلقت بعد ذلك على السفن ذات الحجر والمرافق التي يركبها العظاماء ، فهي شبيهة بما يسمى بمصر « بالذهبية » ويصح إطلاقها أيضاً على ما نسميه (باليخت) .  
(†) صاحب المحراب سليمان عليه السلام .

وقال من أخرى :

قد ركب الدلفين بدر الدجى      متحجاً للماء قد لبعجاً\*  
لم تر عيني مثله راكباً      أحسن إن سار وإن عزجاً  
وإذا استحثته مجاذيفه      أعنق فوق الماء أو هملجاً\*\* (٢٦٦)

وقال من رجز :

ألا ترى ما أعطى الأمين      أعطى ما لم تره العيون  
ولم تكن تبلغه الظنون      الليث والعقاب والدلفين (٢٦٢)

وإذا تركنا المشرق وتمائيله ، وانتقلنا إلى الأندلس موطن الحضارة العربية ، ومعهد  
التفنن والاختراع ، لرأينا عجيباً واستجليناً بدعاً ، واستدللنا من خبر القوم في تصورهم وجناتهم  
على أنهم كانوا أشد مغالاة بها ، وأحرص على الاستكثار منها من أهل المشرق ، وحسبنا  
ما أقامه الناصر من التماثيل في الزهراء ، وما أقيم منها في حمراء غرناطة الباقية إلى اليوم  
تعايرك الدهر . قال المقرئ في « نفع الطيب » (٢٦٩) في كلامه على الزهراء : « إن أحد  
اليوناني جلب لعبد الرحمن الناصر من الشام ، وقيل من القسطنطينية حوضاً صغيراً أخضر  
منقوشاً بتماثيل الإنسان ، لا قيمة له لفرط غرابتة وجماله † ، فنصبه الناصر في بيت المنام  
في المجلس الشرقي بالزهراء ، المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب  
الأحمر مرصعة بالدرّ النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد إلى جانبه  
غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين  
وطاوس ، ودجاجة وديك ، وحادأة ونسر †† . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس  
ويخرج الماء من أفواهها » (٢٦٣) .

(\*) لبعج خاض اللبّة ، أى منظم الماء .

(\*\*) الهملجة حسن سير الدابة في سرعة ، والمهلاج من البرادين هو ما نسميه الآن بالرهوان .

(†) لا ريب في أن هذا الحوض المصوّر ليس من صنع العرب ، والقصد من ذكره ، ذكر

التماثيل التي عملت بدار الصناعة بقرطبة وأقيمت عليه .

(††) الذي عدّه ثلاثة عشر تمثالاً لا اثني عشر كما ذكر أولاً ، وقد ذكر هذه التماثيل في كتابه

« أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » ، فقد منها أحد عشر وقال : والثاني عشر لم يحضرن

اسمه الآن .

وقال في موضع آخر : « وفي صدر هذه السنة ، كمل للناصر بنيان القناة الغربية الصنعة التي أجزاها ، وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة في المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان ، لهما وبيص شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد ، فيمجه في تلك البركة من فيه ، فيهر الناظر بحسنه ، وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاهه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنّاته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك<sup>(٢٦٤)</sup> .

وكان بحمام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل جلاها لنا أحد شعراء الأندلس بقوله :

ودمية مرمر تزهو بجيد تناهى في التورّد والبياض  
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألت بأوجاع الخاض  
ونعلم أنها حجر ولكن تميمنا بألحاظ مراض<sup>(٢٦٥)</sup>  
وقال التّطيلي \* الأعمى في أسد يقذف الماء من فيه :

أسد ولو أنى أنا قشه الحساب لقلت صخره  
فكأنه أسد السما يمج من فيه الحجره<sup>(٢٦٦)</sup>

وقال الوزير أبو جعفر الوقشي ، وقد شرب على صهر يج فاختنق الأسد الذي يرمى

الماء ، ونفخ فيه رجل أنجر فجرى :

ليث بديع الشكل لا مثل له صيغت من الماء له سلسله  
يقذف بالماء على جنبه كأنه عاف الذي قبله<sup>(٢٦٧)</sup>

ولعمري لقد أبدع الوزير في الوصف ، فجعل اشتمزاز الأسد من تقبيل الرجل الأبخر

علة رميه بالماء على جنبه ، كما يعاف المرء الشيء فيلوى وجهه عنه ، ولولا اختناقه بشيء دخل في فيه مع الماء ، وتسخير هذا الرجل له ، لما تهيأ للوزير وصف هذا الشكل بمثل هذا التعليق المونق .

(\*) نسبة إلى تطيلة بضم فسكسر ، بلد غير طليطلة .

وخرج ابن قزمان شيخ الصناعة الزجاجية بالأندلس إلى متنزّه مع بعض أصحابه ،  
فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفايح من الحجر ، فقال  
على طريقتهم الملحونة في الزجل ، أي بتسكين أواخر الكلم :

وعريش قد قام على دكان بحال رواق\*  
وأسد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق  
وفتح فمُو بحال إنسان به فواق  
وانطلق من ثم على الصفايح وألق الصياح<sup>(٢٦٨)</sup>

وكان في قصر المعتمد فيل من فضة على شاطئ بركة يقذف الماء ، وهو الذي يقول  
فيه عبد الجليل بن وهبون من قصيدة :

ويفرغ فيه مثل النصل بدع من الأفيال لا يشكو ملالا  
رعى رطب اللجين فجاء صلياً تراه قلماً يخشى هزالاً<sup>(٩٦٢)</sup>  
وقال يحيى بن هذيل في غزاة من نحاس ترمى الماء في بركة :

عنت لنا من وحش وجرة ظبية جاءت لورد الماء ملء عفاها  
وأظنها إذ حدت آذانها ريعت بنا فتوقفت بمكانها  
حيث بقرنى رأسها إذ لم تُجد يوم اللقاء تحيةً بينانها  
حنت على الندمان من إفلاسهم فرمت قضيب لجينها لحفانها  
لله در غزاة أبدت لنا در الحباب تصوغه بلسانها<sup>(٢٨٠)</sup>

ولما أراد أحد سلاطين مراکش في القرن الثاني عشر إبرام هدنة مع الإسبان ، ندب  
لذلك السيد أحمد بن محمد بن غزال الفاسي ، وبعثه سفيراً لملكهم سنة ١١٧٩ ، فكان  
مما شاهده بأشبيلية ووصفه في رحلته « نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد »<sup>(٢٧١)</sup> ، دار عربية  
كبيرة كانت لم تزل قائمة على عهدده يقول في وصفه لها ولجنتها : « وبأعلى السور تصويرة  
آدمي ، وبيده بوق متصل بفيه يزعق فيه ولا يسكت إلا إذا انقطع الماء ، وبهذا الروض  
عدة صهاريج استوعب جميعها تصاوير يندفق الماء من فيها » .

(\*) يريد مثل الرواق ، وكذلك قوله بحال إنسان ، أي مثل إنسان به فواق ، وهو شخص  
الربيع من الصدر .

وقس على الأندلس سائر بلاد المغرب ، وما كان في قصورها من الصور والتماثيل ؛  
كالدار التي بناها المنصور بن أعلى الناس\* بيجاية ، واتخذ في بستانها بركة عليها أشجار  
مذهبة ، ترمى أغصانها الماء ، وعلى حافاتها أسود مذهبة قاذفة بالماء أيضاً ، وفيها  
يقول ابن حمديس :

وضراغم سكنت عرين رياسة      تركت خرير الماء فيه زئيرا  
فكأنما غشى النضار جسومها      وأذاب من أفواهها البلورا  
أشد كأن سكونها متحرك      في النفس لو وجدت هناك مثيرا

إلى أن يقول في الأشجار :

وبديعة الثمرات تعبر نحوها      عيناى بحر عجائب مسجورا  
شجرية ذهبية نزعت إلى      سحر يؤثر في النهى تأثيرا<sup>(٢٧٢)</sup>  
إلى آخر ما قال في وصفها :

وله من قصيدة أخرى يصف فيها بركة يجرى إليها الماء من شاذروان من أفواه طيور  
وزرافات وأسود :

خصت بطائرة على فنن لها      حسنت فأفرد حسنها من ثان  
قس الطيور الخاشعات بلاغة      وفصاحة من منطق وبيان  
فاذا أتيج لها الكلام تكلمت      بخير ماء دائم الهملان

إلى أن يقول :

وزرافة في الجوف من أنبويها      ماء يريك الجرى في الطيران  
وكأنما ترمى السماء بيندق      مستنبط من لؤلؤ وجمان  
في بركة قامت على حافاتها      أشد تذلل لعزة السلطان<sup>(٢٧٣)</sup>

وهي طويلة نسكتفي منها بهذا المقدار .

---

(\*) أورده ياقوت في « معجم البلدان » بلفظ (علناس) ، ولعله اسم بربرى استصوبوا تغييره  
بأعلى الناس ، أو يكون أعلى الناس هو الأصل ، وحرفته العامة بالمغرب ، فجرى ياقوت على ما هو  
مشهور بينهم . ومن ذكره بلفظ (علناس) ابن الأثير في « الكامل » مكرراً في عدة مواضع . والذي  
في « نفع الطيب » (أعلى الناس) .